حديث الشهر

# مع السندباد الفنان الدكتور حسين فوزي

يقدمه : محمد عبد الحليم عبد الله

قد يمشي في الطريق فلا يلفت النظر اليه .... رجل عادي يغلب عليه التواضع والصحة ... اناقته كلها في رأسه من حيث تكوينه « الطبيعي » او من حيث « محتوياته » .

شعره المجعد المقسوم بين اللون الاصلي والشيب وجبينه الواسع ولونه المصري وفمه الصغير وعيناه الفلقتان الساهمتان شيئا ما ـ كل هذا يؤكد ما قلته من ان اناقته كلها في رأسه ...

كان في جريدة الاهرام في مكتبه في الميعاد قبل ان أصل اليه . وكان اليوم حارا والجو في مجموعه لايبعث على التفكير لأن الوقت كان ظهرا .

وعندما جلست معه فطنت الى انني ارتدي بذلة كاملة لانه كان يرتدي قميصا بسيطا مفتوحا قصير الكمين ، ويرحب في سرور ومودة . وجلس لايكاد يشعر بحرارة الجو وطلب قدحين من (التمر هندي) فتأملت « السندباد » في قميصه البسيط بعدما نطق بكلمة « هندي » وتصورت البلاد التي قطعها والبحار التي ركبها من الغسابات الاستوائية الى ثلوج الشمال .

ذلك ( السندباد ) الذي بعث الى زميله وصديقه توفيق الحكيم برسالة . كتبها السندباد وهو في تونس في احدى رحلاته العلمية وتناول وصف مدينة القيروان فكتب اليه الحكيم مداعبا يقول له : انظر الى دراستك الاحياء وما فعلت بك ؟ لقد وصلتك حتى للصحراء !!

ربما كانت أكثر اسفاره من أهم أسباب بساطته ومن أهم سباب عمق ثقافته..

لا يحب الاشياء الخفيفة ... منطقه « علمي » واسلوبه « معمل » ولفظه « أدبي » ... يبحث عن التوافق الموسيقي والانسجام السمفوني في كل ما يؤلف ...

وقد كنت حريصا على أن أعرف سر ذلك عندما القاه لانني ما كنت اعلم شيئا عن نشأته الأولى . فقلت له :

ـ هل من الممكن ان أعرف شيئا عن نشأتك الاولى يادكتور ؟

ـ نشأتي الأولى ؟!

رددها وكأنه يريد أن يكشف سر ما وراء السؤال ٠

فقلت له بسرعة !!

ـ حقيقة ٠٠٠ هناك كثيرون لايعرفون الكثير عن نشأتك وأنا شخصيا تكمل صورة الأديب عندى حتى تصبح لوحة فى بروازه حين اعرف نقطة البدء فى حياته ٠ فالمسألة اذن دراسة وليست اشباع فضول ٠

فابتسم الدكتور حسين فوزى وهو يقول !!

ـ لعلى أنا شخصيا لا احد فى حياة الطفولة شيئا غريبا ٠ لكن الذى يجب ان اذكره هو انى نشأت فى قاهرة العصور الوسطى وأقصد بذلك هندسة البناء والمناظر العامة التى تفتحت عليها عيناى ٠

فعمل بعد عشرين خطوة من مسجد الحسين ولأب مهندس فى وزارة الاوقاف ٠٠٠ ولدت !!

ولما تركنا هذا الحى انتقلنا الى حى مشابه هو باب الشعرية ٠

سكنا احد بيوت المماليك وكان يطل على شارع الخليـــج وعلى مقربة من باب مسجد الشعراني ٠٠٠ أيضا !!

فقلت :

ـ من باب الحسين لباب الشعراني !!

ـ الى البغالة ٠٠٠ الى فم الخليج ٠

مواطن الفلكلورية المصرية حتى اليوم ٠ وكنت أتبع أبى وأنا صغير ٠ تأملت المساجد والآثار التى كان يدخلها واحدا بعد واحدا ٠ كنت امسك بالشريط واتابع علمه فى صمت ٠ وأستطيع ان ادعى انى كنت اتفاهم فى حب مع فن المعمار ٠ كان يبدو فى انسجام استثار بلبى ٠٠٠

وشردت أنا قليلا والدكتور حسين يتكلم عن فن العمارة وحاولت ان اربط بين التناسق الموسيقى والانسجام المعمارى بين تأمله للعمارة وحبه للموسيقى فذكرت قول القائل :

« ليس فى العمارة الا موسيقى متجمدة » ٠

ثم ما لبثت ان عدت بدهنى اليه وهو يكمل تاريخ نشأته ٠

ـ حتى الكتاب الذى حفظت فيه القرآن كان ضيقة للفن المعمارى الذى بدت فيه القاهرة فى تلك الفترة ٠ ثم وحفظت ثلث القرآن فى هذا الـــكتاب ٠٠٠ حتى سورة ( طه ) وموســـــيقى القرآن ملأت نفسى وحركت وجدانى ٠٠٠ أحببته أدبا وموسيقى ٠ ثم دخلت المدرســة الابتدائية ككل ابناء جيلى وأحببت الرسم والأدب

والموسيقى . قرأت الأدب العربي كله في كل عصـــــوره ... ثم تركز كل حسي واهتمامي حول الأدب والموسيقى .

وسكت الدكتور حسين بانتظار سؤال آخر لكنني كنت في هذه المرة اتحيله في مكان آخر غير جريدة الاهرام ... كانت صورته أمامي وكأنه على ظهر سفينة اسمها « البورس » في يوم عاصف والبحر شديد الهياج . وهذا الاديب الرقيق ينظر الى ثورة عناصر الطبيعة حوله .

ثم ما لبثت ان تذكرت أن هذه الصورة ليست خيالا ـ انها حقيقة حقيقة ... عاشها ووصفها السندباد في كتابه « سندباد الى العرب » ...

وهذه اللحظات التي سوف نعرف تفاصيلها كتبت تحت عنوان « كوانترا بوتي » في كتاب « سندباد الى العرب » وهي من أجمل ما قرأته في أدب الرحلات ... القصة المتحركة البسيطة الحية ... هذا هو أدب الرحلات في نظري .

أما كلمة « كوانترابوتي » فقد شرحها السـندباد لأنها كلمة غير مألوفة عند الناس . وهي تعبير موسيقي في معناه « تأليف الحان مختلفة كل منهـا مستقل موضوعا ولكنها في مجموعها تؤلف هارمونية » .

هذا هو العنوان الذي اختاره القصاص الرحالة الموسيقى الأديب العالم الطبيب

وفي هذه القطعة يمكن جدا أن نرى القصـاص الرحالة الموسـيقي في طبق واحد . مثل صورة مركبة من ثلاثة وجوه تبين فيها ملامح كل فرد .. أراد الدكتور أن يؤلف قطعة أدبية تتحقق فيها الهارمونية . فالف بين اسطورة الاسكندر الاكبر ذي القرنين الذي يجوب الآفاق بحثا عن روح الخلود وبين ... سفينة الصـــــيد الفرنسية « البورس » ... سفينة الصيد ... التي لقيت الأهوال من أمواج البحر .

وفي هذه القصة « عصب » يربط أجزاءها المتفرقة . عصب من صنع المؤلف . كلمات ؟ ... لا ... بل أصوات ... أشبه بما يردده ( الكورس ) من كلمات بين مقاطع الاغنية . أصوات كأنها تقـوم بعملية « التفصيل » على ما فات ثم « التمهيد » لما هو آت . في جو قصصي كهول ... أو أثيري ... أو في شحوب ضـوء القمر .

اقرأ جزءا من القصة

« زن .. زن .. زين . اسكندر ذو القرنين . زن .. زن .. زين . اسكندر ذو القرنين .

اساطير الاسكندرية تتطاير هنا وهناك . مبعثرة بين الشهنامة والمسعودي . قد يكون مصدرها ذلك المؤلف المزعوم ( كللـتيشس ) ومنها اسطورة ذي القرنين يجوب الآفاق بحثا عن روح الخلود . تصورها موسيقى بول دوكا في معزوفته السمفونيـة ( البيري ) . وهذه الموسـيقى تتردد في أذني منذ غادرت القاعة ( بليل ) عصر يوم أحد واتخذت سمتي الى ميدان سانت اوجستيان .... فشارع الاوبرا . طريق طويل

تحتوى فيه النغم البرى الغنية ايقاعا والحانا وهرمونية واذا بالايقاع يتطور ويتحول :

تك ... تك ... تك تم تم تين .

ما هذا الايقاع ؟ ليس من موسيقى يول دوكا ولا من هذه الناحية من العالم . انه صدى لحن جاءنى من بعيد جدا . فى الزمان والمكان . انه ايقاع الساقية فى ريف بلادى الذى لايشبه ريفا رايته منذ سافرت شرقا وغربا . او هو صوت حنسون كاد يقص على طفولتى اسطورة الاسكندر ....

قصة خلق الاسكندر الوحيد بين رجاله يعرف سر الملك العظيم حين يذهب الى معدنه يصف له شعره فيكشف بين خصلاته عن قرنين ... اسكندر ... در له قرنين . اسكندر ... در . لو قرنين .

ثم يذهب ليبوح بسره فى الفضاء والاركان الخربة يسرى عن نفسه بالغناء : « اسكندر ذو القرنين اسكندر ذو القرنين » .

وتتحول الانغام هكذا ... تلك التى سمعها السندباد فى قاعة الموسيقى من لحن الى لحن . لحن يقص ـ قصة الاسكندر فلا يلبث ان يتطور الى لحن الساقية الذى يعود فيقص قصة الاسكندر ثم يتطور اللحن الى شىء جديد .

تك .. تك .. يوم تك .. تك .. يوم

ويقص علينا هذا الذى هو ترجمة موسيقية لصوت الونش الكبير على السفينة ـ قصة سفينة الصيد « النورس » الى أن يستطرد السندباد قائلا

وكان الطفل قد انتقل الى عالم الأحلام فى هذا الايقاع الساحر واذا به يرى نفسه فى مستقبل الزمان شابا يلبس كازاكة الصيادين وينتعل حذاء من المطاط طويل الرقبة ويمشى على ممشى السفينة الى جانب الريس ( بوابيه ) يشاهد الشباك تغيب فى مياه خليج غسقونية وطبلتى الونش الكبير تدوران لترسلا اسلاك الصلب للشباك تسحبها معها الى الأعماق وتغنى فى دورانها :

تك .. تك .. يوم تك .. تك .. يوم

جبال من الماء . جبال من الماء .. من الماء كل شىء حى .. جبال من الماء الحى .

وفى اللحظات التالية ترتفع ( النورس ) الطائر الأصم الأعمى . الجارية المنشأة من صلب وخشب ـ الى قناة جبال الموج فيرتد البصر وهو يصير وينبو أسنة الموج على خط الافق كان صفحة البحر هناك أسنة المناشير الحداد .

وأتامل وجوه الصيادين المجاهدين وسط العاصفة . العاصفة التى تتحول الى اعصار لو صدق راديو الريس بوابيه .

ابناء الحضارة يتابعون حرفة الانسان الأول .

..... الشاطئ يبدو على بعد والكل سعيد بالاياب كانه يقطع اول عربة بين اهله ووطنه . فالاعتياد لم يقتل في نفوس هؤلاء الاشياء حنينهم الى الليالى يقضونها في دفء الاسرة أو في جو الحانة تعبق بالدخان الرخيص وتختنق باصوات العراك والضحكات العالية .

اما نهارهم فهو نهار رجال البحر في كل مكان . يتربصون على الشاطئ في مواجهة البحر . يرسلون دخان غلايينهم في غلالات يدملها نسيم البر والبحر ويتفرسون البحر الممتد الواسع كانهم لا يشبعون منه حبا ....

وعندما ينهي السندباد البحار من كتابة قصة السفينة تراه يختم القصة بالنص الأول لملحمة اسكندر ذي القرنين .

كنت قد قرأت هذه القصة بتأمل عندما استوقفني عنوانها وحين جلست مع الدكتور حسين فوزي ووجهت اليه سؤالا عن العلاقة بين الموسيقى والأدب في قصته الثاني ـ اذا به يذكر لي هذه القصة « كونترابونتي » وأخذ يكشف لي عن طريقته في كتابتها ... قصتان في قصة ... يربط بينهما لحن ... يتطور من حال الى حال . والقصتان دائما هرمونية ولو ان كلا منهما تختلف عن الاخرى ... كل قصة من واد .

وقال لي الدكتور حسين فوزي وهو يحدثني عن العلاقة بين الأدب والموسيقى :

نحن لانستطيع ان ننقل الموسيقى الى الأدب ولكني كتبت قصة على الأسلوب الموسيقي . ويستطيع من يدرس الموسيقى ان يتمتع دون ان يشعر بفائدة قادرة . وهذه الفائدة هي التأثير الموسيقي على طريقة كتابته . ويكون هذا التأثير ـ في الأدب ـ داخليا مستخفيا . فأثر « الايقاع » يظهر في بناء اجملة وكذلك أثر الرنين وايضا وهذا هو الأهم ـ فان موسيقى الآلات مؤلفة من مجرد نغمات وهذه النغمات لاتعني شيئا بذاتها المجردة . لكنها عندما ( تبنى ) تصبح شيئا آخر ... جديدا يعبر عن انفعالات مؤلفها .

ان البناء في التاليف الموسيقى مثل البناء في فن العمارة فالنغمات اذا لم توضع في اطار مرتب مرسوم فلا تكون الا ( تنغيما ) وليست هي الموسيقى بالمعنى العظيم .

واهمية البناء في الموسيقى هي التي تؤثر في ادب الكاتب ولكي اوضح ذلك سأضرب مثلين .

الكاتب عندما يؤلف مسرحية والكاتب عندما يؤلف قصة طويلة .

فالذي يؤلف مسرحية لن يقوم عمله ولا توجد مسرحيته بدون البناء المسرحي . فاذا وجدت فمعنى ذلك انها بنيت وهذا الكاتب ليس في حاجة الى بناء موسيقي .

اما الروائي فعنده تكمن الصعوبة .

فقد تسرد القصة على شكل ( حدوته ) وقد تسرد سردا فنيا .

والسرد الفني هو ( البناء )

ولكى يكون البناء اصيلا ومتينا فليس ضرورة ان تظهر اصباغه التحديدية . فالتاثير الموسيقى يستخفى فى بناء القصة كما تستخفى الأصباغ فى البناء .

سالت الدكتور حسين فوزى

ـ هل فى الرواية وحده هو الذى ينتفع صاحبه بالبناء الموسيقى وهو يبنى عمله الأدبى ؟

ـ مؤكد . لكن ... انا شخصيا احس تلقائيا بانتفاعى من الموسيقى حتى فى الكتاب ذى الفصول المختلفة ففى كتاب « سندباد مصرى » فصول كثيرة عن فتح مصر وعن رفاعة وعن الحملة والثورات وكليوبترة لكن مجموعة هذه الفصول منتمية الى اصل لاقراء وهو البناء الموسيقى .

وقد بدأ الكتاب بقسم مثل جحيم دانتى اى الحالة التى وصل فيها المصريون الى الضعة من عهد الفتح العثمانى الى عصر فاروق .

وهذا القسم سميته : « الظلام »

وسميت وسط الكتاب : « ما بين الخيط الاسود والابيض »

وسميت القسم الاخير : « الضياء »

قلت للدكتور حسين

ـ وعلى ذكر الأدب والموسيقى هل تذكر بعض فصول من كتابك ( سندباد الى العرب ) وصفت فيها الموسيقى بالكلمات ؟ يعنى وصفت فيها الموسيقى بالأدب !؟

عندئذ شرد السندباد قليلا وعدا يتذكر لكن ابتسامة معتذرة ولدت على فمه وهز راسه قائلا :

ـ هل تذكر انت ؟

ـ قلت : نعم . اذكر قولك

« كانت اول مقطوعة سمعتها هى السمفونية السابعة لبيتهوفن وما زلت اذكر نوعا من الخشوع استولى على والمايسترو يستعد بعصاه . ثم تنطلق كل هذه الآلات فى « زحمة » فجائية يتبعها لحن بطىء . ثم تنهمر السمفونية نغمات راقصة تشيع فى الجو دفئا وفى النفس جذلا . وكانت تلك القاعة المستطيلة الخسيسة يعبق جوها بالالحان التى جعلت تنعقد هنا وهناك صورا صوتية تختلط فيها حرارة الآلات الوترية بلهيب الآلات النحاسية يطفئها خرير من النايات الفضية ثم تضفى عليهما الآلات الخشبية اشعة زرقاء او خضراء مائعة ناعمة »

اليس هذا جميلا يادكتور ؟

فابتسم فى تواضع . فقلت له :

ـ لقد رفعت ثلاثة من العباقرة الى مسابح الخلود : موسيقى ورسام وشاعر ... بتهوفن والجيلو وشكسبير . ثم قلت :

« أما من عدا هؤلاء فبينهم الفنان الصناع ، وفنان المشاعر وفنان الادراك الحسي ، وفنان الايقاع ، والفنان الصوفي ، والفنان الديونيسوى ، وغيرهم ممن سبروا غور الانسانية وصوروا اشخاصهم من صميم الحياة في واقعيتها أو فيما وراء الحس البشرية بسيكلوجيتها المعقدة ، اما بتهوفن وانجيلو وشكسبير فكانوا كل هؤلاء فيما خلفوه لنا من تراث غني رفيع جعل الارتقاء الى مقامهم شاقا يأخذ على المرء حياته كلها درسا وجهادا وحبا »

وقد احسست حينك ليبتهوفن فيما كتبت عنه يسوم دعسة تبحث عن قبره فرايته مرويا خلف قبر بالسهندس بلدية فيينا ... لكن كيف حينك لعن القصة ولماذا لم تكتب لنا قصصا كثيرة انني قرات لك قصة « الدوتشي الصغير » فاعجبت بدقة الوصف ولمحات السخرية وقصة ( مرثية ) فكنت ابتسم وادمع ... قصة صديقك الفرنسي الذي غرق في بحار الشمال الباردة والذي كان يعمل معك في المعمل ) زميلا فقيرا ساخرا ... يعلق حاكتته ليس على شماعة بل يضعها فوق كتفي هيكل عظمي هناك حتى يخلص من عمله في المعمل ...

لماذا اذن لم تكتب لنا قصصا كثيرة ؟

احسست عندئذ ان الدكتور حسين فوزي يناقب لتفي تهمة لا يحبها لنفسه ثم قال بكل وداعته وكل حماسته وكل انطلاقه :

ـ هل انت لاتعرف أنني زميل محمود تيمور ؟!

صارعت مجيبا :

ـ أعرف ذلك .

فاستطرد :

ـ كنا ثلاثة ... اكبرنا سنا وقدما محمد تيمور ثم محمود تيمور وأنا . وكان محمد تيمور في من القصة بمثابة المرشد لنا وكنا لا نكاد نفترق . وكثيرا ما سافرنا لعزبة احمد تيمور أنا ومحمود . ولعله يذكر حتى الآن ـ ودعنا نتفكه قليلا ـ قصة ورق القطن .

حدث أن ذهب محمود تيمور ليحضر بالنيابة عن والده بيع القطن وكنت معه . وجلسنا في ساحة كبيرة وحولنا اكياس في كل مكان وكان هناك « قباني » يزن الاكياس ، وكان محمود تيمور جالسا يتأمل الرمانة النحاسية التي يرجلقسها الوزان باصابعه حتى تتوازن مع الكيس على الخيط ثم يهتف الوزان بعدد ارطال كل كيس .

واخذ محمود تيمور يتأمل هذه العملية مدة طويلة وأنا معه . وفجأة وجدت محمود تيمور قد نهض من على كرسيه والرجل يرجلق الرمانة ويمشي محمود حتى يقف الى جوار الرجل ويحملق في الميزان . فما كان من الوزان الا أنه ارتبك وارتعش واخذ يتبرأ من ذنب لم يرتكبه وهو السرعة . وقد اعتقد ان تيمور باشا عليه . في الوقت الذي كان فيه محمود تيمور داهيا ليعرف كيف تتم هذه العملية فما كان يعرف عن ارقام ( القباني ) شيئا .

ومع محمود بيرم كتبت قصصا عددها خمس وعشرون نشرت ما بين ١٩١٩ ، ١٩٢٤ في مجلات السفور والفجر ...

وكانت حياتي واعدة بأن تحملني أمضي في هذا الطريق لولا حادثة رئيسية حدثت .

ـ هي ؟

ـ هي سفري الى الخارج . فمجرد رؤيتي الباخرة وسفري الى الخارج لدراسة العلوم تعبر كل شيء . وكنت قبل ذلك قد فرغت من دراسة الطب واشتغلت بمستشفيات الرمد سنوات . وكانت دراستي للتاريخ الطبيعي والاحياء المائية سببا في أنني جبت العالم في رحلات لاعدد لها .

وقد مكثت في فرنسا وحدها خمس سنوات ....

قلت للدكتور حسين فوزي :

ـ لماذا اذن ابتعدت عن دراسة الأدب في هذه الفترة ؟

ـ عندما يذهب نحن ابناء القديم ـ وهذا رأيي ـ الى مثل هذه المواطن فهل نؤلف ؟! لا ... بل يجب أن نتلقى . لان مثل هذه البعثة التي تكون بين سن الخامسة والعشرين وسن الثلاثين لن تتكرر ... لن تحدث الا مرة واحدة في العمر .

كان همي الأول ان امتلىء بكل نافع حقيقي مفيد . ان أعرف لباب الحضارة في مدرجات السربون وقاعات الغرف والمتاحف والمعامل وكتب الفكر والانتقال من بلد الى آخر .

ولم اكن أحس ابدا في هذه الفترة بحاجة الى الكتابة بل كانت كل رغباتي وطاقاتي وملذاتي المعنوية متجهة الى الشرب من مناهل الحضارة الحقيقية .

وكانت قراءاتي دائما لها خطة معينة ...

ثم عدت الى وطني وانا الأول في دراسة الأحياء المائية والقى على عاتقي انا وزميل في عبء الثروة المائية .

ثم ابتسم الدكتور حسين في وداعة وتواضع واستطرد :

حتى اذا ما كانت سنة ١٩٣١ مر بي صديقان هما توفيق الحكيم واحمد الصاوي فحملاني أكتب عن رحلاتي في ( محلتي ) ... هذه هي القصة .

**كان الوقت يتقدم وحر القاهرة في ذلك اليوم شديد الرطوبة ولم ار علامات تعب على محدثي . فقد علمته الرحلات طول الصبر كما علمته ( المعامل ) تحري الحقيقة والدقة . ولست ادري لماذا تذكرت كلمة رائعة عن الفن قالها الدكتور حسين فوزي ... تذكرتها وانا اتاهب للنهوض فالقيتها على مسامعه كأنها تحية مني اليه ـ حييته بأفداره وبجميل كلماته :**

**« لقد طالب المسيح بالغفران للخاطئة لانها « احبت كثيرا » ونحن احباب الفن قد يغفر لنا التمسح بمقامه والتعلق بجديد ثوافله أننا أحببنا الفن كثيرا »**

**ثم قلت للدكتور حسين : انني احب الموسيقى لكنني أنقم عليها انها استأثرت بك أكثر من القصة .. لكننا على كل حال نحس جمال الفن في كل ما تكتب .**